منهما سنة ، فهي تحبل مرة وهو مرة ، وهي ترضع ولداً وهو يرضع ولداً ، وأن ينص هذا القانون على أن من يستعمل (نون النسوة) يعاقب بغرامة قدرها عشرة جنيهات !

يا سيداتي ، إنكن تعودتن منا التشجيع والتصفيق والهتاف ، ولكن المسألة خرجت عن المجاملات وصارت مسألة موت لهذه الأمة أو حياة ، فأعدن التفكير في أسس هذه النهضة ، واجعلن مصلحة الأمة هي الميزان فيها !

يا سيداتي ، لقد كنا نرجو منكن أن تدفعن عنكن هؤلاء السفلة من الرجال ، وأن تصفعنهم على وجوههم النجسة ، كما تصفع المرأة العفيفة أحد هؤلاء الكلاب إذا حاول الاعتداء على عفافها ، وأن تقاطعن هذه المجلات الداعرة الخبيثة التي تؤذي شرفكن باسم الصحافة والفن ، وأن تثرن على هذه الأفلام السينمائية الداعرة ، وأن تخرجن معلمات حاذقات وتنادين بمنع كل شاب مهما كان شأنه ، معلماً أو مفتشاً أو ناظراً ، من تجاوز عتبة مدرسة من مدارس الأناث ، فهل تحققن هذا الرجاء ، هل تقمن هذه النهضة على أساس الدين والخلق والعلم النافع ؟ !

(دمشق) **علي الطنطاوي**

أعلام الفكاهة :

جحا الألمــــاني
أو
مرآة البـــــومة
للأســـتاذ كامل كيلاني

لا يسع الباحث — مهما أغفل من الشخصيات الجحوية في أرجاء العالم وهي كثيرة كما رأيتم — أن يغفل الحديث عن « تل » جحا الألمان الملقب : بـ « مرآة البومة » .

فنحن إذا تركنا الشرق الذي أبدع فيما أبدع من أعلام الفكاهة الشرقية : هذين الجحوين الفاتنين : الشيخ « أبا الغصن دجين بن ثابت » والأستاذ « نصر الدين » ، وانتقلنا إلى ألمانيا رأينا شخصية جحوية ثالثة تظهر في العصر الذي ظهرت فيه شخصية الأستاذ « نصر الدين » أعني في القرن الرابع عشر الميلادي ، وهو رجل شديد الشبه بجحا التركي ، يكاد يكون — في كثير من أحواله — نسخة مكررة له ، إن لم يكن على التحقيق .

وقد نشأ « تل » : جحا الألمان ، كما نشأ صاحبه الأستاذ نصر الدين : جحا الأتراك فلاحاً يحرث الأرض ويزرعها .

وقد ولد « تل » في مدينة « كنيت لِنجن kneit lingen » من أعمال « برنزويك Brunswick » ومات في « مين Molln » بالقرب من « سْليسْفج Sblossiuig » عام ١٣٥٠ . قالوا :

وكان كثير السياحة والتجوال على قدميه في أنحاء ألمانيا ، ولم يتجاوز « تل » منتصف العقد الثاني من عمره حين مات أبوه في مدينة « هلّى Holle » . عاش « تل » و « نصر الدين » كلاهما في عصر واحد ، كما ترون ، في بلدين متباعدين ، من قارتين متجاورتين .

وقد أطلق عليه لقب « مرآة البومة » ، وهو لقب بارع الدلالة رائع المغزى . فإن البومة — برغم إجماع الناس — مهما تباينت أجناسهم وعصورهم — على النفرة منها ، واستنكار صورتها — لا ترى في المرآة إلا وجهاً طبيعياً ليس به ما ينكر ، ولا فيه ما يعاب . وهو لون مبتدع للتعبير عن الحكمة المأثورة الخالدة : « إن المرء لا يرى عيب نفسه » .

وقد شاء بعض الباحثين أن يميز « تل » ذلكم الفلاح الذكي بقسط موفور من الغفلة ، كما حلا لآخرين أن يعزوا إليه شيئاً قليلا من الخبث . واستدل بعضهم على ضيق ذهنه وموفور غفلته ، بما يؤثر عنه من المغالاة في تطبيق ما يسمع تطبيقاً حرفياً ، والوقوف عند مدلول الألفاظ الحرفي ، غير معنيّ بما تنطوي عليه في أثنائها من دلالات حقيقية كانت أم مجازية .

وقد افتن المتخيلون في نسبة كثير من الطرائف إليه في هذا الباب تمثل — أكثر ما تمثل — ألواناً من آراء متخيليها وروح الدعابة الأصيلة في نفوسهم .

ولكن أيّ الشخوص الجحوية سلم من أمثال هذه الغمزات؟ على أن سواد الباحثين يذهبون — في غير مغالاة — إلى أن « مرآة البومة » كان فلاحاً ذكياً مستقيم الفطرة ، وأنه لم يلجأ إلى التشبث بحرفية ما يلقى إليه من حديث ، إلا رغبة في السخرية من غرور سكان المدن المتحضرين الذين لا يستطيعون إخفاء

ما يضمرونه من احتقار لأمثاله من الفلاحين .

ويستدلون على ذلك بقصته مع الخباز ، وإليكم خلاصتها فما يتسع الوقت لغير الخلاصات .

قدم « مرآة البومة » على خباز فى بعض المدن ، واتفق معه على أجر يومى لعمله . وأمره الخباز ذات يوم أن ينجز — فى غيبته — ما اعتاد أن ينجزه كل يوم من أرغفة الخبز .

فسأله « تل » متباهاً : « ماذا أخبز ؟ » .

فضاق صدر الخباز بغباء صاحبه ، وقال له متهكما :

« اخبز لنا يوماً وغربانا ! » :

وما كان أشد حيرته حين عاد فرأى صاحبه يطبق ما سمعه منه تطبيقاً حرفياً ، فيخبز كل ما لديه من الدقيق بعد أن يقطّعه على صُوَر البوم والغربان وأشكالها ، ولا يكاد الخباز يعود ، ويرى ما فعله « تل » حتى يتملكه الغيظ ، فينهال عليه تعنيفاً وتقريعاً . فيقول « تل » : « ماذا يغضبك ؟ ألم تقل لى ذلك ؟ ألم تأمرنى أن أخبزه يوماً وغربانا ؟ » .

فإذا اشتد هياج الخباز قال له « تل » : « هوّن عليك ياصاحبى ولاتتمادى فى غضبك ، وخبرنى ثمن ما أتلفت من خبز؟» .

فيقول : « جنيهان » فينقده « تل » ما طلب . ثم يحمل السلة إلى السوق ، فلا يكاد يراها الناس حتى يتهافتوا على شراء تلك الأشكال الطريفة التى أبدع صنعها ولم يكن لهم عهد بمثلها فيبيعها بخمسة أمثال ما دفعه للخباز . ويَنْمى إلى الخباز ما ظفر به صاحبه من نجاح ، فيعود إليه مستعطفاً ، ليستأنف عمله ، بعد أن ظهر له وجه الفائدة فى ابتكار « تل » ولكنه لا يعثر له على أثر . فقد غادر المدينة ، وكأنما كان « تل » يتوقع هذه النتيجة ، فذهب إلى مكان آخر ليستديم حسرة الخباز عقاباً له على ما أسلفه إليه من إساءة وغرور .

ومن بديع ما يستدل به الباحثون على حرص « تل » على التقيد بحرفية ما يقول بعد أن استدلوا — بما أسلفناه — على حرصه على التقيد بحرفية ما يسمع ، تلكم الطرفة التالية :

سأله سائل : ترى بعد كم من الزمن أبلغ المدينة ؟

فقال له « تل » : سر فى طريقك .

فحسبه الرجل لم يسمع ، فأعاد عليه السؤال مكرراً رجاءه بصوت مرتفع . فأجابه « تل » نفس إجابته الأولى . فغضب الرجل وحسبه يهزأ به ، فصرخ فيه : أجب عن سؤالى أيها الغبى ؟

فقال له : « سر فى طريقك » فتركه الرجل ، وسار فى طريقه وهو يكيل له اللعنات ، والغضب آخذ منه كل مأخذ ، ولم يكد الرجل يبتعد عنه قليلا حتى صاح به « تل » أن يتمهل ريثما يفضى إليه بأمر يعنيه . فوقف الرجل متعجباً من غرابة أطوار هذا الرجل . وسأله : « ماذا تريد ؟ » .

فقال له فى هدوء الفيلسوف : « إذا سرت على هذا النهج بلغت المدينة بعد ساعتين » .

لم يفهم الرجل أول الأمر ما يعنيه « تل » بقوله : سرْ فى طريقك وحسبه يتعالى عن إجابته ويرغب فى التخلص من رؤيته ، ولكنه أدرك أخيراً أن صاحبه على صواب ، فلم يكن فى وسعه وهو يتوخى الصحيح فى إجابته أن يعرف مدى الزمن الذى يستغرقه حتى يبلغ المدينة قبل أن يتعرف من مشيته مدى اتساع خطوته .

ألم يقل أبو نواس : « عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء » ثم ، ألم يقل المتعمقون : إن لكل مسألتين وجهين على الأقل ؟ فما هو صاحبنا يأخذ فى فهم ما يسمع وما يقول بالوجه الثانى للمسألة ، فلا يبعد فى حاليه عن الصواب . ورحم الله القائل :

« خذا وجه هرش أو قفاها ، فإنما

كلا جانبي عرش لهن طريق »

ومن عجيب المصادفات أن تجنى الحرفية والتشبث بالمشاكلات اللفظية على صاحبنا بعد مماته ، كما جنت عليه أثناء حياته . فإن لقبه : « مرآة البومة » مؤلف — كما ترون — من لفظين : « مرآة » و « بومة » ، وكلمة مرآة تكتب بالألمانية « سيجل siegel » وتذكرنا حروف رسمها كلمة « سجنجل » ومعناها — فيما يعلم القارىء — مرآة ، وهى ترجمتها بالعربية .

ولكن حروف سيجل ، إذا لفظها الألمانى قلب الياء الأولى باء ، فنطقها « شبيجل » دون أن يثبت هذا القلب فى كتابتها . وقد استخرج الفرنسيون منها لفظاً يجمع بين الكتابة والنطق ، وتمسكوا بالحرفية فى كليهما ، فأضافوا إلى بنية الكلمة

المكتوبة حرف « الباء ؟ » الذي ينطق به الألمان ولا يثبتونه. وبذلك تألفت منهما كلمة « اسبيجل espiegle » ، ومعناها : ألعبان أو هازل ثم خرجوا منها كلمة « espieglerie » ومعناها الألعبانية أو المجون . ثم أوحى لهم هذا التخريج الجائر ومشتقاته أن ينحلوه قصصاً يدور محورها على الهزل والمجون . فكان لهم ما أرادوا . ورحم الله المتنبي القائل : « ومثلك من تخيل ، ثم خالا » .

وقد ذكرتم تلك المغالطة اللفظية — أو الحرفية إن توخينا الدقة — بمغالطة أخرى منطقية ابتدعها ابن الرومي الشاعر البارع منذ أكثر من أحد عشر قرناً تخلص منها إلى نتيجة عجيبة ، لا تقل في غرابتها عما وصل إليه ذلك الساخر الفرنسي الذي جوز لفظ المرآة — وهي ترمز إلى الطيبة أو الغفلة — إلى لفظ « الألعبان » وفيه من الخبث ما فيه .

اتخذ ابن الرومي من قول الإمام العراقي أبي حنيفة بجواز شرب النبيذ وتحريم شرب الخمر ، ومن رأى الإمام الحجازي الشافعي : أن النبيذ كالخمر ، نتيجة لم تخطر على بال الامامين على بال . أراد الشافعي كما تعلمون وكما يعلم ابن الرومي المغالط الأكبر أن يقول :

« إن النبيذ كالخمر فهو مثلها حرام » ، وعكس ابن الرومي قصد الإمام فقال : مادام النبيذ حلالا في رأى أبي حنيفة ، والخمر كالنبيذ في رأى الشافعي ، فالخمر حلال كالنبيذ في رأى القياس المنطقي .

وهكذا استطاع الخبيث بما وهبه الله من أدوات الخبث وفنون المغالطة أن يتخذ من المنطق سلماً إلى الفرار من الحقيقة التي لم يخلق المنطق إلا لدعمها وبنائها ، فقال : غفر الله له :

أحل العراقي النبيذ وشربه
وقال : « الحرامان المدامة والسكر »
وقال الحجازي : « الشرابان واحد »
فحلت لنا من بين قوليهما الخمر
سآخذ من قوليهما طرفيهما
وأشربها ، لا فارق الوازر الوزر

الحظ السعيد

ومن بديع سخرية « تل » وتهكمه ، ما تمثله لنا قصته مع أحد السادة وكان يصحبه إلى الغابة ليصطادا ؛ فلقيا في سيرهما أرنبا صغيراً يجري مسرعاً ، وكان صاحبه كشاعرنا ابن الرومي ، من المتطيرين . فلم يطق مواصلة سيره خشية أن يصيبه مكروه في ذلك اليوم ، وحاول « تل » أن يقنعه بسخف ما يذهب إليه المتطيرون ، فلم يفلح . فلما جاء اليوم التالي رأيا في طريقهما إلى الغابة ذئباً فقال له « تل » : الآن وجب علينا أن نرجع ، حتى لا يصيبنا مكروه ! وليس في أيدينا ما ندفع به عاديته من السلاح . فراح صاحبه يهون عليه ويقلل له من خطره ، ويحدثه أن الذئب متى اعترض الإنسان في طريقه ، فذلك بشرى بما تدخره له الأقدار من حظ سعيد ، وحاول « تل » أن يثنيه عن عزمه في متابعة السير ، ويقنعه بفساد هذه الخرافة فلم يفلح .

ثم لم يلبث « تل » أن ظهر رجحان رأيه بعد قليل : فقد أقبل الذئب على جواد صاحبه ، وهو مربوط إلى بعض أشجار الغابة ، فافترسه وأكل من لحمه ما شاء ، و « تل » وصاحبه مشغولان بالصيد . فلما عادا ورأيا الذئب منهمكا في تمزيق لحم الجواد وازدراده ، التفت « تل » إلى صاحبه ، وقال له متهكما :

« ما أصدق رأيك يا صاح : ألا ترى حسن الحظ وهو يأكل جوادك » .

* * *

بحسبنا هذا القدر على وجازته وإلا امتد بنا نفس القول فشغلتنا طرائف « مرآة البومة » عما هدفنا له من أغراض . على أنني أجتزىء في الحديث بتلك الطرفة التي تعزى إلى « تل » مرة وإلى « يات » مرة أخرى ، وإن كانت بثانيهما ألصق ، وبطبعه أليق .

فهي من أبرع ماقرأته من أخبار هذه الشخصيات الرائعة :

فقد زعموا أنه بعث إلى خليلته أو حليلته ، فما يدري ذلك أحد على وجه التحقيق ، بالكتاب الآتي :

« أرجو ، إذا لم تصل إليك هذه الرسالة ، أن تسرعي — من فورك — بالكتابة إلي لأعرف أنك لم تقرئيها .